



١٥

من روائع الأدب

قصة القين

سريتم السلام

البراد

دار الفنون

قصة اليقين

قصة للفتيات

بقلم

مريم السالم

دار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ هـ ص.ب ٦٣٧٣

ت/ ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس/ ٤٠٣٣١٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين .

إلى كل الحائرين . . .

إلى كل التائهين . . الغافلين . .

الباحثين عن السعادة والفوز والفلاح في
الدنيا والدين . . .

نحكي لهم قصة اليقين . . .

نحكي لهم عن التائبين .

نقول لهم مخلصين مشفقين ناصحين :
 عودوا مع العائدين . . .
 توبوا مع التائبين . . .
 كونوا من المؤمنين الصادقين . . .
 فهوؤلاء صاروا هم الراحين . . . هم
 الفائزين . . .

كلنا نودعُ
 كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ
 يوماً على آله حذاء محمولُ
 كانت تصغرني بسنة واحدة ، ورغم أننا

مجموعة أخوات إلا أننا أقرب اثنتين
لبعض . . .

ظهرت عليها علامات الصلاح والاستقامة
ولله الحمد عشت معها لحظات لا تُنسى كان
منها تلك الرحلة التي قمنا بها سوياً لزيارة أختنا
المريضة في مدينة أخرى لا تبعد عنا سوى بضع
ساعات . . .

وعندما رأيناها بصحة جيدة قررنا الذهاب
معهما في نزهة إلى البحر . . . وفي الصباح
الباكر من ذلك اليوم كان الجو عليلًا والبحر

ساكناً سكون الليل لكنه يحمل في طياته ما لم يكن في الحسبان . . .

وفي بداية الأمر كان أخي الذي يصغرني بثلاث سنوات يحاول أن يخدعنا . . . يُدخل رأسه في الماء ويخرجه ويُشير لنا بيديه ، ونحن نرمقه من بعيد . . . كانت أمي خائفة . . . متحيرة . . . لا نعلم لماذا هبَّتْ مسرعة؟! سارت باتجاه أخي وأخذت تناديه : يا بُني ، انتبه لنفسك . . . أخرج من الماء . . . فما يتمالك هو إلا أن يضحك . . .

في هذا الوقت كنا نعد طعام الإفطار . . .
تناولناه على عجل . . . وقمنا نلهو
ونلعب . . . جرينا بشدة على الرمال الباردة
حتى وصلنا إلى الشاطئ . . . فإذا به مليء
بالقواقع والأصداف والحيوانات البحرية
الغريبة . . .

كان المكان خالياً إلا من أناسٍ نراهم من بعيد
ولا تكاد نُميّز أشكالهم . . .

دخلنا البحر الواحدة تلو الأخرى ومعنا أُمي
الحنونة . . . كنا نتمسك بالأيدي ولم نبعد عن

الشاطئ إلا بمقدار مترين فقط . . . سحبتُ
يدي من بين أيديهن وأخذت أجري لأدخل
قبلهن إلى البحر . . . ووجدت نفسي أسبح
بخفة . . . والبحر يجرنني إليه . . .

وفجأة سقطت في حفرة فحاولت أن أتدارك
القدم الأخرى . . . سحبتها بكل قوتي . . .
ولكني لم أستطع . . . فسقطت وكان
القدر . . . كنت أعتقد أنني أستطيع الخروج
بقليل من المحاولة إلا أنني أحسست بثقل
جسمي وعمق الحفرة . . . فما كان مني إلا أن

أخذت في الصراخ . . . أمي أمي . . .
الحقيني . . . وأشرت بكلتا يدي . . . فجاءت
أمي بسرعة نحوي . . . ولكن يا إلهي . . . ما
لي أراها بطيئة . . . بطيئة جداً . . . يبدو أنها لن
تدركني . . . حينها أخذت الأفكار تدور في
رأسي . . . وتدور . . . الآن سأموت . . .
سأدوع الدنيا . . . سينتهي كل شيء بهذه
السرعة . . . نعم بهذه السرعة تنتهي
حياتي . . . ولكن . . . إلى أين أذهب؟! إلى
داخل البحر . . . ثم إلى أين?!

إلى التراب... إلى الدود... إلى
الحساب والجزاء...

ماذا قدمت؟! ماذا عملت؟! ماذا سأقول
لربي؟! والذنوب... والمعاصي... لا يا
ربي... لا...

أنقذوني يا رب أنقذني يا رب...
أنقذني...

سأتوب... سأعود... سأصلي...
سأصوم... سأقوم... لا... لا أريد أن
أموت... أريد أن أعمل... أن أتزود

للقائك يارب . . . أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسول الله . . .

وجاء الفرج . . . ها هي أمي . . . ها هي
أمي . . . قد وصلت إلي . . . في اللحظات
الأخيرة . . . لك الحمد يارب .

أمسكت بي . . . تجرني إليها . . . كدت
أطير من الفرح . . . عندما لمست يدها
يدي . . . أحسست بالحياة . . . بالنجاة . . .
ولكنها ثوانٍ . . . وما لبثت هذه الفرحة أن
زالت . . . لقد سقطت معي هي الأخرى . . .

وها نحن نوشك على الغرق . . . لحقت بنا
 أختي . . . ولكن لا فائدة . . . ثم جاء أخي
 الأكبر يتبعه الأصغر . . . بل حتى أختي
 الصغرى . . . الكل يريد أن يساعد . . . أن
 يخرجنا من هذه الدوامة . . . ولكن يبدو أنه لا
 أمل في النجاة . . . فالمكان عميق . . . والموقف
 شديد . . . العائلة بأكملها ستغرق . . .
 جميعها تستنجد وتطلب العون . . . وأنا أراهم
 كلهم غرقى . . . كل يريد الخلاص . . .
 وعادت إلي دوامة التفكير . . . من جديد . . .

ترى... هل سنموت جميعنا؟! ومن سيبقى؟! لا بد أنها لحظة الاحتضار...
أصبحنا وحدنا في هذه الدوامة... لا أحد... لا مجيب يسمعنا أختي المريضة - التي جئنا لزيارتها - كانت ممددة على الرمل على بعد عشرين متراً من الشاطئ... تستمع لضحكاتنا وهي بين النوم واليقظة... فجأة سمعت الصراخ والنداء... انتبهت... لم تكن تصدق في بداية الأمر... ولكنها وجدت نفسها تجري بسرعة رهيبة نحو الصوت...

سبحان الله : هذه المريضة والتي تحمل بين أحشائها طفلاً بلغ شهره السابع تجري بهذه السرعة وتأتي إلينا بتلك القوة . . . وبالرغم من ذلك لم تستطع فعل شيء . . .

وفي نهاية المطاف جاء شخصان كانا قد سمعا الصوت من بعيد . . . فأنقذوا من أنقذوا وخرج البعض من نفسه بمساعدتهم . . . وأنا لا أزال أغوص تحت الماء . . . وقد كنت أكثرهم بعداً . . . فأخرج الرجل إحدى أخواتي ثم جاء ليساعدني في الخروج . . . وعندها فقط

تسمت هواء النجاة . . . وجاء الفرج حقاً . . .
أحسست بالحياة مرة أخرى تعود إلي ويتجدد
لقائي بها . . . ولكن هذه المرة يقيناً . . .

نحن الآن على الشاطئ نعد أنفسنا عدداً
ونؤكد . . . فجأة تصيح أختي الكبرى . . . أين
أمي؟!!

وأجبته . . . لقد أفزعتينا . . . أنظري إليها
إنها هنا . . .

ثم تعاود الصياح مرة أخرى . . . ولكن هذه
المرّة بصوت يشوبه الحزن والخوف . . . أين

(وفاء)؟!

تلفتُ يميناً ويسرة... نعم أين وفاء؟! أين
أختي الصغرى؟! نظرت إلى البحر فرأيت
منظراً مهولاً... صرخت بأعلى صوتي...
انظروها... إنها هناك... لا نرى سوى
ثيابها تطفو على الماء... وشعرها الطويل
يسبح من خلفها...

يسرع ذلك الرجل الذي أنقذنا ويسحبها إلى
الشاطئ... ننظر إليها جميعاً... هذه
(وفاء) نعم هي...

ولكن لماذا لا تضحك؟! لماذا لا تتحرك؟!
عينها شاخستان... يداها متدليتان... الماء
يتدفق من أنفها وفمها وأذنيها... أنظر
إليها... أمسك رأسي... أغمض عيني
بقوة... وأفتحها مرة أخرى... أحقاً ما
أرى... أهذه نهاية المخاض؟! هذه هي
النهاية... أنا الأولى... وهي الأخيرة؟! أنا
أعيش وهي تموت؟! أيعقل هذا؟! لا...
لا... لقد كانت قبل قليل تلعب معي
وتضاحكني... تشاركني الأكل

والشرب . . . تقفز هنا وهناك!!
 أهي ميتة أم حية؟! كان يقني أنها ميتة . . .
 ولكن هناك بقايا أمل في أنها ما زالت على قيد
 الحياة . . . خاصة وأن إخوتي قالوا ذلك . . .
 أخذوها إلى المستشفى وجاء الخبر
 كالصاعقة . . . وبعد مضي ست ساعات على
 الحادث لم يخبرنا أخي . . . بل قال إنها ما
 زالت في غرفة الإنعاش . . . وهي قد فارقت
 الحياة منذ رأيتهـا هناك على الشاطئ . . .
 اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون

شهيدة... رغم أنني كنت أول من غرق وآخر
من خرج... لكنها الأقدار... تجرئ لا
خيار... وهنا يأتي الإيمان بالقدر خير
وشره... ونعلم علم اليقين... مصداق قول
رسول الله ﷺ: «ما أصابك لم يكن ليخطئك
وما أخطاك لم يكن ليصيبك»... رحمك الله يا
وفاء رحمة واسعة وغفر لك وتقبلك من
الشهداء... إنه سميع... مجيب
الدعاء...

لقد كان لهذه الحادثة أثر عظيم في

نفوسنا . . . فقد تاب من كان عاصياً ورجع من
 كان معرضاً . . . ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ﴾ .

كنت أقول لنفسي :

ألا يمكن أن يكون لك مثل هذا اليوم؟!
 ماذا قدمت؟! وماذا عملت لهذا اليوم؟!
 أخذت أحاسب نفسي وألومها كثيراً . . .
 وأتذكر لحظات الموت وأنا غريقة في البحر . . .
 فيقشعر بدني ويهتز كياني . . .
 عدنا إلى منزلنا الذي خرجنا منه . . . في

مدينتنا كل شيء غريب... الشوارع...
البيوت... رائحة الجو... وكأني أدخلها
لأول مرة...

وصلنا البيت... وكانت أختي المريضة لا
تستطيع الاقتراب نحو الباب من شدة
البكاء...

أما أنا فقد حاولت أن أبدو أقوى منها...
دفعت الباب بقوة... دخلنا البيت شعرنا
بشعور غريب... كأننا تركناه منذ سنين...
رغم أن تلك الرحلة استغرقت أسبوعين

فقط . . .

جال بصري فيما حولي . . فرأيت ما
بيكيني . . . ويقطع فؤادي . . . هذه غرفتي
وغرفتها . . . هنا مخدتها . . . ملابسها . . .
حقيبتها . . . دفاترها . . . عطرها الذي أهدتني
إياه قبل رحيلها . . . أين هي؟!!

لقد كنا قبل أيام أربع أخوات فأصبحنا اليوم
ثلاثة . . .

إذا جاء الليل أنظر إلى فراشها . . . فارغ لا
أحد عليه . . . فيقشع جسمي وتصطك

أسناني . . . كم سهرنا سوياً نتحدث حتى
يجيء النوم . . . كم ذهبنا سوياً إلى المدرسة أنا
وهي . . . من سيذهب معي الآن؟! سأذهب
وحدي . . .

ولكنني أقف لحظات أتأمل وأقول
لنفسي . . . سأذهب أيضاً وحدي إلى قبر لا
أنيس فيه ومنزل لا سعة فيه . . . فماذا
أعددت؟! كلنا سائرون نحو الأجل
المحتوم . . . لكن الأهم . . . ماذا قدمنا
لأنفسنا؟! وهل تزودنا لسفرنا البعيد؟! أم

ماذا؟ سؤال . . . ونداء أوجهه لنفسه أولاً
ولجميع إخواني وأخواتي في الله . . . التوبة
التوبة . . . الأوبة الأوبة . . . الرجوع إلى
الله . . . تقوى الله تعالى . . . تدارك العمر . . .
ويا ابن آدم . . . إنما أنت أيام كلما ذهب يوم
ذهب بعضك . . . وكلما نقص يوم نقص
عمرك وقرب أجلك . . . والحمد لله رب
العالمين ﴿ إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .